نظرية الدورات الاقتصادية

د. عليّ محمَّد أبو العِزّ

تنمُو الدَّوراتُ الاقتصاديّةُ في أسواقِ بُلدانِ العالَمِ كافَّةً بشكلٍ (تصاعُديٍ ومُنسَّقٍ)؛ فالدوراتُ الاقتصادية العنيفة والسنواتُ المالية الصعبة (العِجافُ) يعقبُها (ازدهارٌ اقتصاديٌّ، وانتعاشٌ ماليٌّ) قد يكون قويّاً؛ بحيث يصنعُ من التحدِّيات (فُرَصاً وطُفرَةً) في النشاطِ الاقتصاديِّ، ويؤدِّي إلى (رفْعِ مستوياتِ المَعيشة، وتوفيرِ الكثير من فُرَصِ العملِ، وتنحيفِ مُؤشِّراتِ البطالةِ البدينةِ والمُتخمَةِ بإضاعةِ الأوقاتِ وخسارةِ الدخول..)، وفي المقابلِ فإنَّ الدَّوراتِ الاقتصاديةَ قد تُصابُ بفَيروسِ (الرُّكودِ الاقتصاديِّ)؛ بسببِ (التضخُّمِ، وارتفاعِ الأسعارِ، وانتشارِ المُضارَباتِ والرِّهاناتِ المالية، وارتفاعِ سعرِ الفائدة)، يتبعُ ذلك (هبوطُ مستوى الأداءِ الاقتصاديِّ، وتدنِّي الناتجِ القوميِّ، وتقهقُرِ الأرباحِ والدَّخْلِ الحقيقيِّ، وازديادِ مُعدَّلاتِ البطالةِ إلى مُستَوياتٍ مُحبطةٍ، وإفلاسِ الشركات)، والخياراتُ الوحيدةُ التي يتشبَّثُ بها أصحابُ هذه الشركاتِ لإنقاذِ أنفُسِهم هي: تخفيضُ الإنتاجِ، وطردُ العمَّالِ، أو الخُروجُ من السوقِ (إغلاقِ الشركة)؛ ولكنَّهُم عندما يفعلُونَ ذلك يُدمِّرُونَ أسواقاً وشركاتٍ ومصانعَ (شريكةً أو حليفةً أو مُستفيدةً)، ويُحطِّمُونَ قواها العاملةَ (ماديّاً ومَعنويّاً)، وتدخلُ الأزمةُ في دائرةٍ جهنَّميَّةٍ تتوهَّمُ فيها كلُّ شركةٍ أو مؤسَّسةٍ أنّه بإمكانِها مُعالجَةَ خسائرِها وتفاديها من خلالِ (تقليصِ عددِ العمَّالِ لدَيها، وزيادةِ الإنتاجيةِ بالأعدادِ القليلةِ الباقيةِ) مع تخفيضِ أُجورِهم؛ ولكنْ في كلِّ مرَّةٍ تستخدمُ فيه (المؤسَّسةُ أو الشركةِ) هذه المعالجَةُ، أو تلجأُ إلى تعاطي جُرعاتٍ إضافيَّةٍ منها، تتفاقمُ المشكلَةُ أكثرَ؛ حتّى تجِدَ نفْسَها على شفيرِ الإفلاس.

فالنشاطُ الاقتصاديُّ؛ إمّا أنْ ينْكمِشَ ويهبطَ مستواه إلى الحُدودِ الدُّنيا بعد أنْ كان في أوجِ تألُّقِه، وإمّا أنْ يتوسَّعَ في مُعظَمِ القطاعاتِ بشكلٍ (مُتسارعٍ أو مُتباطئٍ) بعد أنْ كان مستواهُ في الحَضيضِ.

هذه التغيُّراتُ الطارئةُ ملازِمةٌ للنشاطِ الاقتصاديِّ، ولا يُمكِنُ فصلُها عنه؛ فهي كظِلِّه المُصاحبِ له، وقد تُخيِّمُ أجواؤها المُغبَرَّةُ على الاقتصادِ سنينَ عَدداً، وقد تُشْرِقُ بشَمسِها الصافيةِ على أرضِ الاقتصادِ أعواماً عديدة؛ فهي كالمُناخِ من الصَّعبِ التنبُّؤِ بتوقيتِ تقلُّباتِه وضَرباتِه غيرِ المُنتظَمة، ولا تُوجَدُ مُعادلةٌ أو أجهزةُ رَصْدٍ دقيقةٍ تُحدِّدُ مَدى (عُمقِها وقوَّتِها).

فالدورةُ الاقتصاديةُ عِبارةٌ عن مرحلةٍ زمنيَّةٍ قد تبدأُ بأزمةٍ، وقد تقودُ إلى أزمةٍ أعمقَ؛ فـ(تتعطَّلَ القوى العاملةُ المنتِجة، ويلتهِبُ عصبُ الاقتصادِ، وتتبدَّدُ المُنتجاتُ أو تتراكَمُ)؛ بسببِ (الكسادِ، وهُبوطِ الأسعارِ، وعَدمِ القُدرَةِ

على بيعها)، وتَفقد المُؤسَّسات قُدْرَتَها على تحويل مَخزونها السِّلعيِّ إلى نُقود، ويَنخفضُ حجمُ الإنتاج والدَّخل، ويتراجَعُ الطلبُ، وترتفعُ الشركاتُ والمؤسَّساتُ الرَّايةَ البيضاءَ مُعلنَةً (انسحابَها واستسلامَها وإفلاسها)، ويعجزُ أصحابُها عن سداد دُيونهم، وتجفُّ مصادرُ السُّيولة لدى الدَّائنين– لا سيّما المَصارف–، وتنتشرُ في المجتمع حالةٌ من (الذُّعْرِ والهَلَع) تزيدُ حجمُ طلبات السحب على الودائع المَصرفيَّة، الأمرُ الذي يُصيبُ الهياكلَ الماليَّةَ للدَّولة بالشَّلَل.

وعندما تصلُ الأزْمةُ إلى طريقٍ مَسدُودةٍ في أسفل القاع، يبدأُ الاقتصادُ في استعادة عافيته، وينهضُ من غَفْوَته العميقة، ويتزحزحُ حَجَرُ الانسداد الذي (أعاقَ وعَرقلَ) حركةَ النشاطات الاقتصادية، ثُمَّ تنشطُ حركةُ الإنتاج، وقد تتسارعُ إلى حدِّ الجُموح؛ فتقفزَ قفَزاتٍ هائلةً في القطاعات الاقتصادية والمالية، ويُحافظُ المستوى العامُّ للأسعار على مَوقعه بثبات، ويتزايدُ الطلبُ على المُنتجات، وينحسرُ المخزونُ السِّلعيُّ، ويصلُ مُستوى تشغيل الطاقة البشرية إلى مستوياتٍ جيِّدة، ومن ثمَّ يبدأُ الانحدارُ تدريجيًّا من (ذُروة القمَّة والرَّفاهيَّة الاقتصادية إلى رُكودٍ يعقبُه أزمةٌ)، وإلى أزمةٍ يعقبُها (نشاطٌ وانتعاشٌ)، وهكذا تتوالى الدَّوراتُ الاقتصاديَّة بينَ (الانكماش والازدهار)؛ لترسمَ السِّياسات الاقتصادية الواقعيَّةَ الأكثرَ جَدوى.

وفي الوقت الذي تتمتَّع فيه بعضُ دُول العالَم بفَترات طويلة من (الازدهار والتوسُّع) الاقتصادي، واعتلاء عَرش الصَّدارة وذُروة القمَّة والهيمنة الاقتصادية، تتراجعُ دُولٌ أُخْرى؛ بل تتدهورُ؛ لينتَهِيَ أمْرُها إلى (الحَضيض، أو القاع، أو الجفاف الاقتصاديِّ)، وتظلُّ تتعذَّبُ بسياط الرُّكود والكَساد حقَباً طويلةً.

الكنايةُ في القُرآن الكريم عن الدَّورات الاقتصاديَّة بالبقَر السِّمان والعِجاف:

لقد تأوَّلَ يُوسفُ عليه الصلاةُ والسلامُ رُؤيا المَلك بأنَّ (النشاطَ أو الرَّخاءَ) الاقتصاديَّ الذي تعيشُه البلادُ المصريَّة سَتَحْدُثُ بعدَه (أزمةٌ خانقةٌ) تؤدِّي إلى هَدْرٍ هائلٍ للمَوارد، وأنّ على الحُكومة المُكلَّفة بإدارة الأزمة أنْ تُخبرَ شَعْبَها بلا (صَراحةٍ أو مُواربَةٍ) بأنَّه لا سبيلَ لتفاديها إلاّ بشَدِّ الحزام، وبَذْل بعض التَّضحيات، واتِّخاذ التدابير الادِّخاريَّة اللازمَة.

وقد اتَّخَذَت الدَّورةُ الاقتصاديَّةُ بين (الرَّخاء والأزْمة) كما قصَّها القُرآنُ الكريمُ إيقاعاً منتظَماً لم يكُنْ لأحَدٍ من البَشَر أنْ يعلَمَ كنْهَهُ بهذه الدِّقَّة؛ إلاّ أنْ يكونَ (نبيّاً مُلْهَماً) يُوحَى إليه؛ فسَنواتُ الرَّخاء السبْع المُكْناة بـ(البَقرات السِّمان) يَعقبُها سبعُ (سَنواتٍ عِجافٌ)، مع أنَّ الأزْمَةَ قد تكونُ (عميقةً قارصةً وقارظةً) ومُدَّتُها أطولُ من سنيِّ الرَّخاء، وقد تقودُ إلى أزمةٍ أسوأ– قد تكونُ قصيرةً وطفيفةً– ولم يحدثْ على حدِّ مُطالَعاتي المُتواضعَة أنْ (تعادلَتْ أو تساوَتْ) أزمةٌ مع الرَّخاء بهذا (النَّسْق والاتِّساق) المُذهل باستثناء ما أنبأنا به القُرآنُ الكريمُ في سُورة يُوسُفَ عن الأزمة المِصريَّة.

مُؤشِّراتٌ مُصاحِبةٌ للدَّورات الاقتصاديَّة:

إنَّ من العلامات التي يُمكِنُها المُساعِدةُ في التنبُّؤِ بوُجودِ عاصفةِ رُكودٍ في الأُفقِ ما يلي:

١. تراجعُ الطلبِ على السِّلَعِ والخدَمات بِحِدَّةٍ، وتزايدُ المَخزُونِ السِّلَعيِّ المُتراكِمِ منها.

٢. ارتفاعُ البَطالةِ نتيجةَ تسريحِ العُمَّالِ؛ لاستدراكِ الخسائرِ اللاحِقَةِ بمُنشآتِ الأعمالِ، أو نتيجةِ عَدمِ وُجودِ الوظائفِ التي تستوعِبُ الأعدادَ الكبيرةَ من العَمالة، أو نتيجةِ تدنِّي الأُجورِ.

٣. انخفاضُ أرباحِ القطاعاتِ كافّةً في: (الأعمالِ، والصناعةِ، والتجارةِ، وهُبوطِ أسعارِ الأسهُمِ، وضَحالَةِ المُنتَجاتِ، ورَداءةِ نوعيَّةِ المُخرَجاتِ، وتناقُصِ المَخزُونِ السِّلَعيِّ)؛ بسببِ قِلَّةِ الإنتاجِ، وربَّما ارتفاعِ أسعارِه مع انخفاضِ مستوى الاستهلاكِ والطلَبِ عليه- رغمَ الحاجةِ إليه-؛ لِعدَمِ مُواءمَةِ سِعرِها مع كمِّيَّةِ الدَّخْلِ للشخْصِ.

التنبُّؤُ بالمُتغيِّراتِ الاقتصاديَّة:

التنبُّؤُ بالمُتغيِّراتِ الاقتصاديَّةِ المُستقبَليَّةِ مهمَّةٌ صعبةٌ جداً؛ - وحتَّى لو تمَّ استخدامُ (تقنياتٍ قياسيَّةٍ حديثةٍ ومُعادَلاتٍ بيانيةٍ وتاريخيةٍ مُتطوِّرةٍ)؛ للحُصولِ على (تقديراتٍ استدلاليةٍ، أو آليَّةِ تحذيرٍ مُبكِرةٍ) - تظلُّ عمليَّاتُ التنبُّؤِ غيرَ مَعصُومةٍ من الخطأ؛ بل قد يكونُ الخطأُ في هذه التِّقنياتِ وفي المُحترِفينَ الذين يَستخدِمُونَها في التنبُّؤِ أكثرَ من أخطاءِ التنبُّؤاتِ البسيطةِ، ولا أخالُها علماً؛ بل هيَ أقربُ إلى أنْ تكونَ مهارةً في التخمينِ المَدرُوسِ.

إنَّ الأزماتِ الماليةَ والاقتصاديةَ عادةً ما تحدثُ بَغتةً وعلى حينِ غِرَّةٍ، وفي كُلِّ مرَّةٍ يتوقَّعُ فيها أكابرُ الاقتصاديِّينَ، أو يتمُّ الإعلانُ رسْمِيَّاً، أو التصريحُ بـ(استقرارِ النشاطِ الاقتصاديِّ ونُموِّه)، وبأنَّهُ وَصَلَ إلى (مَرتبَةِ الخُلودِ وبأنَّه لا يُقْهَرُ)،

ولا يُمكِنُ أنْ تُؤثِّرَ فيه الأزماتُ، تتحرَّكُ الأزماتُ - من غيرِ سابقِ إنذارٍ أو توقُّعٍ - مُخترِقةً (الحُدودَ والفواصِلَ) كافّةً؛ لتنفجِرَ في قلبِ الاقتصادِ مُهدِّمَةً (أبنيتَه وعُروشَه) من قواعدِها ليَخِرَّ (من فوقٍ) على رُؤوسِ أهلِه، وحينئذٍ يقفُ العباقِرَةُ الاقتصاديونَ ممَّنْ جادَلُوا عن توقُّعاتِهم بجُرأةٍ نادرةٍ على الأطلالِ الماليةِ المنكوبَةِ مَشدُوهينَ في حَيْرَةٍ مُطبِقَةٍ عاجزينَ عن فَهْمِ هذه الظاهرةِ المُعْجِزَةِ، وحَلِّ هذا اللُّغْزِ المحيِّرِ.

لقد فشلَ الاقتصاديُّونَ فَشلاً ذَريعاً في التنبُّؤِ بمَوجاتِ (الصُّعودِ والهُبوطِ) الملتهِبةِ، وباتتْ توقُّعاتُهم الساذَجةُ موضُوعاً للسُّخْريةِ لدى العامَّةِ؛ فشلُوا في التنبُّؤِ بـ(الرُّكودِ الياباني، والانتعاشِ الأمريكيِّ، والأزمةِ الألمانيَّة، وفوضَى السُّوقِ الأوروبيَّة، والأزماتِ العالميَّة..).

وابتدعَ المُحلِّلُونَ وتبنَّوا العديدَ من (النظرياتِ والتفسيراتِ) الخُرافيَّةِ حولَ سببِ حُدوثِ الأزماتِ؛ فبعضُهم ربطَها بـ(الكواكبِ والأجرامِ) السماويَّةِ وتأثيراتِها على الأرضِ، أو بـ(تغيُّرِ المناخِ وتقلُّباتِه)، أو بـ(البترولِ ونفادِه

التدريجيِّ)، أو بـ(التزايُدِ المُتواصلِ لأعدادِ الناسِ، وعَدمِ القُدرةِ على تشغيلِهم بالكاملِ)، أو بـ(المُضارَباتِ السائبةِ الوهميَّةِ)، وبلا شكٍّ تقومُ المُضارَباتُ الوهميَّةُ بدَورٍ في الأزمةِ، وتعملُ على التهابِها وزيادةِ حدَّتِها؛ لأنّها تتجاهلُ عملياتِ الإنتاجِ الحقيقيِّ وتوليدَ الثروةِ؛ ممّا يؤدِّي إلى (زيادةِ الاقتراضِ والمَديونيَّةِ، ورَفْعِ الأسعارِ)؛ ولكنَّها ليستِ الأساسَ الذي يدفعُ بالنظامِ الاقتصاديِّ إلى الأزمةِ.

النظريةُ الإسلاميَّةُ في الدَّوراتِ الاقتصاديَّةِ:

إنَّ المُتدبِّرَ لشؤونِ الاقتصادِ العالَميِّ من ناحيةٍ إسلاميَّةٍ يستطيعُ فَهْمَ لُغْزِ (النكساتِ والانكساراتِ) الماليةِ بالمَنطقِ الآتي:

يربطُ الشارعُ الحكيمُ- في كثيرٍ من نُصوصِ قُرآنِه الكريمِ- الرَّخاءَ الاقتصاديَّ بالإيمانِ والتَّقْوى، والبُؤسِ الماليِّ بالكُفْرِ والإعراضِ؛ كما في الآياتِ الكريمةِ الآتيةِ:

المقطعُ الأوَّل:

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ وَلَـكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُون [الأعراف: ٩٦].

فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُون [الأنعام: ٤٤].

إنَّ الحماسةَ التي تتولَّدُ أثناءَ فتراتِ الرخاءِ؛ حيث تتزايدُ (الأرباحُ، وفُرَصُ العَملِ، ويفيضُ الإنتاجُ، وتزدهرُ أغلبُ القطاعاتُ، وتنهمرُ الأموالُ في الأيدي)، قد يدفَعُ بالناسِ إلى الظنِّ بأنَّ مَخاوِفَهُم (الماليّة أو المعيشيّة) غابتْ بلا رَجْعَةٍ، وكأنَّ الواحدَ منهُم نظرَ فيما وراءَ الأفُقِ فعَلِمَ ماذا خبَّأتْ له الأقْدارُ، وفي ظلِّ هذا الجوِّ البرَّاقِ الذي تتساقطُ فيه الأموالُ كالمَطرِ، ويَنفَكُّ فيه الارتباطُ بين النشاطِ الاقتصاديِّ والإيمانِ، ينتعشُ (الغشَّاشُونَ والمُحتالُونَ) من كُلِّ صنفٍ للحُصولِ على المكاسبِ السريعةِ، وينتشرُ الفسادُ ويتغلغلُ، ويكثرُ التلاعُب؛ فتنفجرُ الأزمةُ في الوُجوهِ، وتُفلسُ الأسماءُ الكبيرةُ، وتندثرُ الأسماءُ الصغيرةُ، وتتحوَّلُ نَغمةُ السعادةِ إلى بُوقِ تعاسةٍ، ولا أحدَ يستطيعُ إدراكَ إلى أين ينتهي هذا الانجرافُ الكاسحُ للأزْمَةِ.

لقد فسَّرَ القرآنُ الكريمُ – بأسلوبٍ ناصعٍ قويٍّ عميقٍ – الأسبابَ الكامنَةَ وراءَ ظاهرتَي (الرَّخاءِ والضَّرَّاءِ)، وبيَّن أنّ مُداولَةَ الأيّامِ، وتعاقبُ الشِّدَّةِ والرَّخاءِ يعدلُ كفَّةَ الميزانِ المائلةِ؛ فـ(اللهُ عزَّ وجلَّ يبتلي بالرَّخاءِ كما يبتلي بالشِّدَّةِ)؛ لأنّ بعضَ الناسِ في الأزماتِ يُؤمنُونَ أو يتجدَّدُ إيمانُهم، ويزدادُونَ للهِ طاعةً، ويلتصقُونَ بركْنِه الشديدِ، ويُدمنُونَ الدُّعاءَ والعبادةَ، ويَمتَلِؤونَ تفاؤلاً بمُعجزاتِه؛ ولكنَّهُم في أوقاتِ الرَّخاءِ (يتَراخَونَ ويَنحلُّونَ ويَستخفُّونَ)، ويقلبونَ الطاولةَ رأساً على عَقِبٍ، ويثورونَ عواملَ أزمةٍ أُخرى أشدَّ تدميراً.

يقولُ الإمامُ الرَّازيُّ – رَحِمهُ اللهُ –: ﴿ إنَّ الاشتغالَ بالطاعةِ سببٌ لانفتاحِ أبوابِ الخَيراتِ وعمارةِ العالَم، وإنَّ الكُفْرَ سببٌ لخَرابِ العالَم ﴾[1].

ويقولُ صاحِبُ القلمِ السَّيَّالِ والسِّحرِ الحلال ابنُ القيِّم – رَحِمهُ اللهُ –: ﴿ ومَن تأمَّلَ ما قصَّ اللهُ في كِتابِه من أحوالِ الأُمَمِ الذينَ أزالَ نِعمَهُ عنهُم وَجَدَ سببَ ذلك جميعَه؛ إنَّما هُو ﴿ مُخالَفةُ أمْرِه، وعِصيانِ رُسُلِه ﴾..؛ فمَا حُفظَتْ نِعمةُ اللهِ بشيءٍ قَطُّ مِثلِ طاعتِه..، ولا زالتْ عن العَبدِ بمثلِ مَعصِيَتِه لِربِّه؛ فإنَّها نارُ النِّعَمِ التي تعملُ فيها كما تعملُ النارُ في الحَطبِ اليابسِ ﴾.

المقطعُ الثاني:

ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ[2] حَتَّى عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ آبَاءنَا الضَّرَّاء وَالسَّرَّاء فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُون [الأعراف: ٩٥].

حوَّل اللهُ حالَهُم من شِدَّةٍ إلى رَخاءٍ، ومن جَدبٍ إلى خِصبٍ، ومن خَوفٍ إلى أمْنٍ، ومن عُسْرٍ إلى يُسْرٍ، ومن مَرَضٍ وسُقْمٍ إلى صِحَّةٍ وعافيةٍ، ومن قِلَّةٍ إلى كَثْرَةٍ؛ ففاضَتْ أموالُهم، وكثُرَتْ ذَراريهم؛ لكنَّهُم لم يستيقظُوا من غَيّهم، ولم يتفطَّنُوا إلى أنّ اللهَ يُريدُ منهُم أنْ يَشكُرُوهُ على ذلك، فاستمَرُّوا في ضلالِهم يَعمهُون؛ فعاقبَهُم اللهُ بالبأساءِ والضَّرَّاءِ لعلَّهُم ينتَهُونَ عن طُغْيانِهم، فما نَجَعَ فيهِم الرَّخاءُ ولا الشِّدَّةُ، ولا ازْدَجَرُوا عن باطِلِهم لا بِهذا ولا بِهذا؛ بل قالُوا بِبَجاحَةٍ مُقزِّزَةٍ:

لقد أصابنَا مِثلُ ما أصابَ آباءَنا الأقدمينَ من السَّرَّاءِ والضَّرَّاء، و﴿ الأيَّامُ دُوَلٌ، والدَّهْرُ تاراتٌ ﴾؛ تارةً لكَ وتارةً عليك. واستسْهَلُوا اقترافَ الكبائرِ التي تَقشعرُّ لها الأبدانُ، ولم يَجِدُوا في أنفُسهم ﴿ حَرَجاً أو تخوُّفاً ﴾ من عِصيانِ اللهِ ومُعانَدتِه؛ فقَصَمهُم سُبحانَه بالقاضيةِ بَغتةً وهم لا يَشعُرونَ[3].

المقطعُ الثالثُ:

وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُون [القصص: ٥٧].

وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُون [النحل: ١١٢].

1. الرازي: أبو عبد الله محمّد بن عمر بن الحسن، (مفاتيح الغيب)، دار إحياء التراث العربي- بيروت، الطبعة الثالثة، 1420هـ (30/651) بتصرف.
2. يقول الرازي في تفسيره: (ومعنى الحسنة والسيئة ها هنا الشدة والرخاء)، مرجع سابق، (14/321).
3. ابن كثير: أبو الفداء اسماعيل بن عمر القرشي، (تفسير القرآن العظيم)، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون- بيروت، الطبعة الأولى، 1419هـ (3/403) بتصرف.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِين [القَصص: ٥٨].

أقامُ اللّهُ عزَّ وجلَّ مكَّةَ – أمَّ القُرَى العربيَّة – في منطقةٍ مُلتَهِبَةٍ، وأحاطَها بالأمان؛ فلم يكُنْ أحدٌ يَجْرُؤ على إيذاءِ غَيرِه – ولو كانَ مُجْرِماً ما دامَ في جِوارِ البيتِ الحرام –، وكان الناسُ من حولِها يُتخَطَّفُون في معاركَ سَطوٍ ضاريةٍ، وكذلك كانتْ أرزاقُ أهلِها تجلبُ إليهِم من كُلِّ فَجٍّ عميقٍ مع الحُجَّاجِ ومعَ القوافلِ الآمنَة، وأرسلَ اللّهُ تعالى نبيَّهُ مُحمَّداً صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّم رَحمَةً لهُم وللعالَمينَ؛ فكَفَرُوا به وأعرَضُوا عنهُ، وافْتَرُوا عليه الأقاويلَ، وأنزَلُوا به وبأتباعه الأذى؛ فعاقَبَهُم اللّهُ بنقيضِ ما أنعمَ به عليهِم، وأبدلَ غناهُم فَقْراً وجُوعاً، وأمْنَهُم خَوفاً وهَلَعاً؛ ذلك بأنَّهُم قالُوا: إنّا نَخافُ إن اتَّبَعناكَ وخالفْنا العربَ (ونَحنُ قِلَّةٌ) أنْ يتعرَّضُوا لنا بالأذى والمُحارَبة ويُخْرِجُونا من أرضِنا، ولم يَنتبهُوا إلى (أنَّ اللّهَ وَحدَهُ هو الرَّازقُ والحافظُ)، وأنَّ قُوى الأرضِ لا تملكُ مِن أرزاقِهِم ومِن أمْنِهِم من شيءٍ، ويا وَيحَهُم لم يتركُوا للإيمانِ مَجالاً ليُخالطَ قلوبَهُم المُغلَّقة بغطاءِ (الكِبْرِ والمُعانَدة)، ولو خالَطها لَتبَدَّلَتْ نَظرَتُهم للأمورِ، ولَعلِمُوا أنّ الأمنَ لا يكونُ إلاّ في جُوارِ اللّهِ تعالى، وأنَّ الخوفَ لا يكون إلاّ في البُعدِ عن حِماهُ، وأنَّ الذي يتَّبِعُ الهُدى يأوي إلى رُكْنٍ شديدٍ في واقعِ الحياة[1].

معادلةُ النظريَّة:

إذا أردْنا أنْ نستنبِطَ من النصوصِ المباركةِ السابقةِ (قاعدةً أو مُعادلةً) لا تتخلَّفُ ولا تختلِفُ؛ فيُمكِنُنا التعبيرُ عنها على النحْوِ التالي:

إيمانٌ + تقْــوى = رَخاءٌ وأمانٌ

كفرٌ + إعراضٌ = جُوعٌ وخوفٌ

فالشريعةُ الإسلاميةُ الغرَّاءُ كما في النصوصِ القرآنيةِ – التي استَشْهَدنا بها آنفاً – تُخبِرُنا أنّ التوازنَ والاستقرارَ المَعيشيَّ والرَّخاءَ يتحقَّقُ إذا آمنَ الناسُ بربِّهم، وطبَّقُوا شريعتَه، وجَعلُوها نظاماً لحياتِهم دونُ تَحَفُّظٍ، وتُبشِّرُنا الشريعةُ الإسلاميةُ بأنّ هذا الالتزامَ سيؤدِّي إلى مُعجزاتٍ اقتصاديَّةٍ، أمّا إذا ما (اختلَّتْ عناصرُ المعادَلة أو فقَدَت المعادلَةُ دعامةً من دَعاماتِها)؛ فسيَحدُثُ التدميرُ عبْرَ أسوأِ الأزمات.

وقد لا تكونُ هذه (النظريّةُ أو المعادَلةُ) مُستساغةً لدى المادِّيِّينَ الذينَ لا يُؤمِنُونَ بـ(الغيبيَّات، والإلهيَّات، والمُعجزات الاقتصادية)؛ إلاّ أنّه يجبُ على المسلمينَ أنْ يتلقَّوا مَضامينَها بقلُوبٍ مُؤمنَةٍ، ويُصَدِّقُوها ابتداءً، وألاّ يَتردَّدُوا لحظةً في تَوقُّعِ مَدلولِها؛ فالمُؤمنُ يَجدُ في هذه الآياتِ الحكيمةِ عِلَّةَ الأحداثِ؛ من خَيرٍ وشَرٍّ.

---

[1]. ابن كثير، (تفسير القرآن العظيم) مرجع سابق، (4/522) بتصرف. سيد قطب، إبراهيم حسين الشاربي، (في ظلال القرآن)، دار الشروق- بيروت- القاهرة، الطبعة السابعة عشر 1412هـ، (5/2702).

وإنَّ الذينَ يَتصوَّرُونَ (أنَّ الإيمانَ باللهِ وتقْواه، والكفرَ به والإعراضَ عن شريعته مسائلَ اعتقاديَّةً (إيمانيَّة) مَعزُولَةً عن واقعِ الحياة، ولا صلَةَ تربطُها بمَعايشِ الناس، وأنَّ مَركَبةَ (الخلافَة) الأرضيَّة ينبغي أنْ تنطلقَ ببنزينِ الدَّوافعِ (مُتحَرِّرةً) بلا كوابحَ دينيَّةٍ، وأنَّ النظريَّةَ الإيمانيَّةَ التي أشارَ إليها القُرآنُ الكريمُ يدحَضُها الواقعُ الذي لا يَجدُ فيه المُؤمنُ لُقْمةَ العيشِ، في حين يتمرَّغُ غيرُ المُؤمنِ بـ (الرِّزْق والقُوَّة والنفوذ).

هؤلاءِ الذين يتخيَّلُونَ من ظواهرِ الأحوالِ هذه الأوهامَ لم يَتذوَّقُوا (طعمَ الإيمان، ولا حلاوةَ التقْوى)، ولم يُحقِّقُوا في واقعِهم شهادةَ أنْ (لا إلهَ إلاّ اللهُ)، وسَمحُوا لغَيره أنْ يتألَهَ بنَظريَّاته السَّقيمة عليهم؛ وصَدَقَ عليهم قولُه تعالى (وما أولئكَ بالمُؤمنينَ)، وحَسبُنا أنّ اللهَ تعالى شَهدَ بأنَّ (عاقبةَ الرَّخاءِ للإيمانِ والتقْوى، وعاقبةَ الشِّدَّة للكُفْرِ والإعراض)؛مصداقاً لقَوله عزَّ وجلَّ (وكَفَى باللهِ شهيداً).

حَسْبُنا أنْ نعلَمَ أنّ اللهَ عزَّ وجلَّ يبتلي بالنِّعمة كما يبتلي بالنِّقمة، والأوَّلُ أشدُّ بلاءً من الثاني، كما يظهرُ في بعضِ السِّياقاتِ القُرآنيةِ؛ حيث أبدلَ اللهُ الأقوامَ الذينَ قصَّ علينا ذِكْرَهُم مكانَ السَّيئة الحسنَة، ومن ثَمَّ قضَى عليهم، كما أنّ الغنى ليس معياراً للرَّخاءِ الكامل؛ فكَمْ من أُمَّةٍ غنيَّةٍ وتعيشُ في شقاءٍ بَعيدٍ، يَسُودُها (القلقُ الأمنيُّ، والاختلالُ الأخلاقيُّ، والتمزُّقُ الاجتماعيُّ)، أمَّةٍ فَزِعَةٍ مُرتجِفَةٍ (تتأرجَحُ وتَضْطَرِبُ)، وتتوهُ في (عقائِدَ باطلةٍ، ومناهجَ ضالَّةٍ).

إنَّ تبدُّلَ الأحوالِ وتعاقُبَها بين (رَخاءٍ وأزْمَةٍ)، لا يَحدُثُ جُزافاً – كما يَزعُم المُلحدُونَ باللهِ عزَّ وجلَّ، وكلُّ ما يصدرُ في هذا الكونِ إنَّما يصدرُ عن حِكْمَةٍ بالغَةٍ، ويقعُ عن تدبيرٍ حكيمٍ، ويَتَجهُ إلى غايةٍ وَجيهَةٍ، وعلى المُؤمنِ الحقِّ أنْ يُدرِكَ حكمَةَ اللهَ تعالى في الأحوالِ المُتبَدِّلَة، وفي الابتلاءِ بالضَّرَّاءِ والسَّرَّاءِ، وأنْ يتَّقي غَضَبَ الرَّبِّ سُبحانَه وتعالى، وألاّ يُعرِّضَ نفْسَه لبأسه الذي لا يُرَدُّ، وعليه أنْ يُدْرِكَ– حقّاً– أنّ البَشَرَ لو آمَنُوا لحلَّتْ عليهم الخَيراتُ، ولفَاضَتْ عليهم الأرزاقُ الغامرَةُ التي لا يَعقبُها نَكالٌ وبَوارٌ.

وأبلغُ دَرْسٍ نَتعلَّمُه من الآياتِ القُرآنيَّة أنَّ هناكَ ارتباطاً وتلازُماً وثيقاً بينَ عَمَلِ الإنسانِ من (خَيرٍ وشَرٍّ) وبينَ مُجْرَياتِ الأحداث من (رَخاءٍ وشدَّةٍ)، وأنَّ الإنسانَ وحَركَتُه في الأرضِ هو الشِّيفَرَةُ الذي يُحَدِّدُ نوعَ المَوجَةِ القادمة؛ سواءٌ كانت (موجةَ صُعودٍ وارتقاءٍ) أمْ (مَوجَةَ هُبوطٍ وانحطاطٍ).

(قُلْ هَذه سَبيلي أدْعُوا إلى اللهِ على بَصيرَةٍ) والحَمدُ للهِ رَبِّ العالَمِينَ.